محكم

شعائر الثورة وطقوس الاحتجاج

عمار بنحمّودة

باحث تونسي

قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخص البحث:

لقد ارتبط التدين بشعائر ومناسك مختلفة، لعل من أهمها طقوس العبور التي تمكن الأفراد والجماعات من انتقال آمن في تحولها من طور إلى آخر. والثورات بدورها تحول مفاجئ وسريع في تاريخ الشعوب، كانت له طقوسه وشعائره التي تحتاج إلى نظر وتحقق، ولذلك تسعى هذه الدراسة إلى البحث في شعائر الثورة وطقوس الاحتجاج متخذة من "الربيع العربي" أنموذجًا، وهي دراسة تؤصل مفاهيمها في أرض معرفية، وتنطلق من عينات واقعية ركزت على الأنموذج التونسي من أجل دراسة أهم طقوس العبور في "ثورة تونس وانتفاضة شعبها"، وقد اعتمدت المنهج التالي:

1- مدخل اصطلاحي

2- شعائر الثورة:

أ- الإحرام

ب- لبس الأعلام وحمل الرايات

ج- التلبية

د- الطواف

هـ- الوقوف والمبيت بالأماكن المقدسة.

و- النسيكة (الضحية الذبائحية)

3- طقوس الاحتجاج:

أ- طقوس الإضراب

ب- طقوس الرجم

ج- طقوس النار.

4- خاتمة: طقوس العبور الثوري

1- مدخل اصطلاحي:

يبدو الجمع بين طقوس العبور مصطلحًا جديدًا في الثقافة العربية الإسلامية، وبين الثورة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، أمرًا يحتاج إلى تقعيد نظري وأساس اصطلاحي؛ فلقد ساد في اللسان العربي القديم استعمال المناسك والشعائر، وظل مصطلح الطقوس غريبًا عن اللغة العربية القديمة، وتعرف الشَّعِيرة بأنها " كل ما جعل عَلَمًا لطاعة الله عز وجل كالوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح وغير ذلك، ومنه الحديث: أَن جبريل أَتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: مر أُمتك أَن يرفعوا أَصواتهم بالتلبية، فإِنها من شعائر الحج... وقال اللحياني: شعائر الحج مناسكه، واحدتها شعيرة..."[1]، وتعرف المناسك بحسب ما ورد في لسان العرب بمفرد هو النُّسُكُ "والنُسّكُ والنِّسِيكة: الذبيحة، وقيل: النُّسُك الدم،... والنُّسُك ما أَمرت به الشريعةُ، والوَرَع: ما نَهَتْ عنه، والمَنْسِكُ: شِرْعة النَّسْك، وفي التنزيل: وأَرِنا مَنَاسِكَنا؛ أَي مُتَعَبَّداتِنا".[2]

والناظر في الأصول الاصطلاحية في الثقافة العربية الإسلامية، يلاحظ حتمًا ارتباط المناسك والشعائر بالمجال الديني، إذ هي أشكال مختلفة من الممارسات الجماعية التي يقصد بها التقرب إلى الله، ولكن ذلك لا يخفي بعض الفويرقات اللغوية بين المصطلحين؛ فالشعائر تبدو من خلال التعريف أشمل من المناسك، إذ ترتبط بكل عمل قصد به مرضاة الله، وهي بذلك مصطلح واسع الدلالة. أما المناسك، فهي ترتبط بالنسيكة (الذبيحة) وبموضعها، ورغم ما يوحي به القول من تماثل مصطلح المناسك مع الشعائر من خلال اعتبار ابن منظور النسك: "ما أمرت به الشريعة". وقوله: "أرنا مناسكنا؛ أي متعبداتنا "إلا أنه سرعان ما يخصّص القول بالحديث عن ارتباط المناسك بمفهوم الذبيحة وموضعها، ويتأكد ذلك من خلال التقارب الصوتي بين الشعائر والشريعة من جهة، وبين النسك والنسيكة من جهة أخرى. فالأول معناه يشمل الأعمال الدينية التي يؤدّيها المؤمن تقرّبًا لله، والثانية مرتبطة بالذبح والهدي الذي يقصد به وجه الله. وارتبط ظهور مصطلح "طقوس العبور" بـ"فان جناب" (Arnold Van Gennep)[3]، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي، "Rites de passage"، وتعني من خلال ما ساد من تعريفاتها[4] نوعًا محددًا من الطقوس يعبر عن التحول من حالة إلى أخرى، ويرتبط بمرجعيات مقدسة تساعد على تحقيق الانتقال من وضع إلى آخر بيسر وبعون قدسي، وهي "تعدّ صنفًا مخصوصًا من الطقوس الدينيّة، وتشترك مع سائر الطقوس في السمات الأساسيّة والوظائف الأوّليّة بما في ذلك المرجع الديني والتكرار والفعاليّة والآثار الاجتماعيّة والنفسيّة."[5] وتتميز طقوس العبور عن سائر الطقوس بكونها ترتبط بمناسبات، وتؤدي وظيفة نفسية تتمثل في التخفيف من وطأة التحول الذي يعيشه الإنسان من طور إلى آخر،

---

[1]- ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (نسك).

[2]- المرجع نفسه، ج10، ص ص 498-499

[3]- Arnold Van Gennep,Les Rites de passage,3éme édition, Paris, 1981

[4]- انظر مثلا:

- Encyclopédie Universalis,1er édition,Paris, SPADEM/ADGP, 1990, tome20, p66

[5]- http://www.mominoun.com/arabic/ar-sa/articles/.

وتخفيف شعور بالخوف والرهبة من وجوده في وضعية وجودية جديدة. وأما وظيفتها الدينية، فتقديم عون مقدس للإنسان يساعده على تجاوز محنة التغيير المفاجئ في حياته، ويهب عملية التحول ضربًا من القداسة التي توفر رافدًا لاعقلانيًا يعاضد الإنسان ويحدّ من غربته. وأما وظيفتها الاجتماعية، فهي تقوية الروابط بين المجموعة المُمَارِسَةِ للطقوس وتحقيق التفاف الجماعة حول الفرد من أجل منحه سندًا اجتماعيًا.[6]

وقد استطاع "فان جناب" تقديم عينات تختلف أزمنتها وأمكنتها، مثل طقوس الولادة والبلوغ والزواج والمواسم وتنصيب الملوك وعينات أخرى ذات بنية ثلاثية للطقوس:

1- حالة انفصال عن المجموعة.

2- حالة يصير فيها الفرد على هامش المجموعة في نقطة البدء.

3- حالة إعادة الاندماج مع المجموعة، والانضمام إليها من جديد، يكون فيها الإنسان قد اكتسب موقعًا اجتماعيًا جديدًا.

وأشار "فان جناب" إلى طقوس ذات مرجعيات مختلفة: دينية، واجتماعية، ووطنية...إلخ، ويرى أن طقوس العبور تساعد على تجاوز الفجوة الناتجة عن الانتقال من وضعية إلى أخرى وتجاوز الأضرار الناتجة عن ذلك التحول. ولهذا، فإن الطور الأول من الطقوس يمثل محورها لما يمثله من مواجهة مضاعفة للمخاطر الناجمة عن تحول وضعية الإنسان. "فالمعاني الأساسية المرتبطة بلفظ العبور تدور حول مفهوم الانتقال أو التغيّر أو التحوّل، سواء أكان هذا الانتقال من المستوى الذهني الرمزي إلى المستوى الحقيقي في عبارة الرؤيا من ضفة نهر أو طريق إلى ضفة أخرى أو من الحياة إلى الموت.[7]

ويمكن أن نلمس، انطلاقًا من هذه التعريفات، صلة جوهريّة بين طقوس العبور والثورة، باعتبارها تعني "في أصل دلالتها الحركة الدائرية الكاملة للكوكب، وفي ذلك إيحاء بصلة المفهوم بعالم السماء، وصارت تعني التغيير الفجئي".[8] وتعرف الثورة اصطلاحًا: بأنها "شكل صريح أو ضمني لتحول حقيقي يتمثل في تغييرات عميقة تتصل بالمجال الثقافي أو بالممارسات".[9] وتعني الثورة في المعجم الفلسفي: "تغييرًا جوهريًا في أوضاع المجتمع لا تتبع فيه طرق دستورية. والفرق بين الثورة وقلب نظام الحكم أن الثورة يقوم بها الشعب على حين أن قلب نظام الحكم يقوم به رجال الدولة، وثمة فرق جوهري آخر بين الأمرين، وهو أن هدف الثورة تغيير

[6]- انظر مثلا: شكري بوشعالة، الدين وطقوس العبور، دراسة مقارنية بين الرسالات السماوية، موقع مؤمنون بلاحدود.
http://www.mominoun.com

[7]- المرجع نفسه، ص ص 29-30

[8]- Le petit Robert de la langue française 2010, 1er édition, Paris, Normandie Roto Impression, 2009,p2245

[9]- Encyclopédie Universalis,1er édition,Paris,SPADEM/ADGP,1990, tome19, p1006

النظام السياسي أو الاجتماعي والاقتصادي، وهدف الانقلاب مجرد إعادة توزيع السلطة السياسية بين هيئات الحكم... والثورة تحول مفاجئ."[10] ويعني الاحتجاج في اللسان الفرنسي:" الإعلان عن موقف بالقوة، والمطالبة ومعارضة أمر قائم."[11] ولذلك، فإنه من الطبيعي جدًا أن تصاحب الثورة والاحتجاجات طقوس وشعائر، ونتخذ لها هذه المسميات لسببين:

الأول: وجود ممارسات ثابتة تساعد على عملية انتقال اجتماعي وسياسي، يمكن تصنيفها وفق التقسيم الذي أقره "فان جناب" إلى طقوس تجميع (Rites d'agréation).[12]

الثاني: الوظيفة التي تلعبها تلك الطقوس من الناحية النفسية والاجتماعية، وذلك لأنها تعطي التحول في حياة المجتمعات بعدًا جماعيًا يضفي عليه قداسة [13] ويستهجن فيها كل مدنس، فإذا كانت الطقوس مطية للطهارة وسبيلاً لدخول عالم مقدس، فإن الثورة في جوهرها تغيير لمدنس سياسي واجتماعي بوضع جديد يقوم على قيم أخلاقية مشتركة بين الجماهير الثائرة، و"إن كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعًا لمجموعة لا على أساس التعيين من الأفراد، أيًا تكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأيًا تكن المصادفة التي جمعتهم، ولكن مصطلح جمهور يتخذ معنى آخر من وجهة النظر النفسية. ففي بعض الظروف المعينة، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكله. فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه. وعندئذ تتشكل روح جماعية، عابرة ومؤقتة بدون شك، ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تمامًا... إنها تصبح جمهورًا نفسيًا (سيكولوجيًا)، وإنها تشكل عندئذ كينونة واحدة، وتصبح خاضعة لقانون الوحدة العقلية للجماهير."[14] تلك الوحدة التي تكون مسؤولة عن إنتاج طقوس مشتركة تتمكن بها الجماهير من تجاوز مرحلة سياسية نحو أخرى وواقع نفسي سمته الخوف والريبة والشعور بالمهانة نحو زمن جديد من الثقة والإحساس بالإرادة تقف بينهما طقوس العبور لتحقق وظيفتها المعهودة، ومساعدة الذات الجماعية للجماهير على الانتقال من طور "الطفولة الجماهيرية" وهيمنة السلطة الأبوية للحاكم المستبد نحو تحقيق الذات، وذلك بقتل الأب وبداية الفعل الجماعي الواعي الذي يعقد قران الشعب على السلطة، ويختن الحاكم بإزالة العضو المسؤول عن النجاسة وإهراق الدم، باعتباره نسيكة (ضحية ذبائحية) من قرابين البشر ودماء الشهداء، حتى يعود للجماهير توازنها بعد طول اضطراب. فالشعائر والطقوس تهب الجماعة ضربًا من العون المقدس كي يصير الانتقال آمنًا وسهلاً.

---

[10]- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ط1، بيروت/القاهرة، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، 1982، ج1، ص381

[11]- Le Petit Larousse,1er édition,Paris,édition Larosse,1995,P831

[12]- Arnold Van Gennep,les rites de passage,p14

[13]- ليس أدل على ذلك من تحول ذكرى الثورة في كل البلدان إلى عيد وطني.

[14]- غوستاف لوبون، **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة: هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الساقي 1991، ص53

ومنطلق الجمع بين طقوس العبور باعتبارها أفعالاً مقدسة وشعائر الثورة، إنما يقوم على اعتبار البنى النفسية اللاواعية للجماعات ثابتة وإن تغيرت مسمياتها؛ فالعهد الجديد حمل كثيرًا من سمات العهد القديم، والإسلام لم يستطع التملّص من الإرث الجاهلي، بل ظل كثير من قيمها ثابت لا يتبدل، وإن تم ترويج صورة سوداء ترفع من قيمة الإسلام على حساب "الجاهلية الجهلاء"، والإنسان على الدوام يعيش عالمه من خلال منظومة رمزية لها ثوابتها و"الصور أو الرموز حية أبدًا على تعاقب الأجيال، ومازالت تُكوّن الأساس في بنية النفس البشرية، ولا يمكننا أن نحيا حياتنا كاملة ما لم ننسجم مع هذه الرموز، وإنّه لمن الحكمة أن نعود إليها. فالمسألة ليست مسألة إيمان، ولا مسألة عرفان، بل هي موافقة تفكير مع الصورة البدئية الخافية.(= اللاشعورية)، إنها مصدر جميع الأفكار الخافية."[15] فللثورة شعائرها وللاحتجاجات طقوسها، وهي طقوس عبور لها ثوابتها النفسية اللاواعية التي تمكن الثائر من نظام طقوسي له قوانينه وقداسته التي تساعد الثائر في عملية التحول من وضع ما قبل ثوري إلى وضع ثوري.

2– شعائر الثورة:

نعتمد في بحثنا عن شعائر الثورة عينات من الثورات العربية التي وقع الاختلاف على اعتبارها انتفاضات شعبية أو ثورات حقيقية، وهي مسألة تحتاج إلى توفر معلومات حول كثير من الأحداث التي ظلت غامضة، ورصدا للوثائق السرية التي قد تكون تخفيها أجهزة استخبارات عالمية، لنتبين حقيقة التغييرات القائمة في الوطن العربي: هل هي تنفيذ للمشروع الأمريكي القاضي بنشر الديمقراطية في الدول العربية، أم هي حركات شعبية أزاحت أنظمة استبدادية بعد أن ضاقت ذرعًا بها؟ وهي مسألة قد يكون التقادم وانكشاف الحقائق سبيلاً لتحري الدقة في الحكم عليها[16]. لذا، فإن استعمال عبارة الثورة يظل مجرد فرضية تاريخية، يمكن للحقائق التاريخية دحضها "فالذين ذهبوا إلى توصيفها بـ"ثورات الربيع العربي" سيكون لهم من الأسباب والتقديرات ما يحملهم على ذلك. والذين مضوا إلى قراءة معاكسة، نظروا إلى "الجيولوجيا" بما هي امتداد جيو- استراتيجي، لهيمنة خارجية تتغيّا تفكيك وإعادة تركيب الإقليم العربي تبعًا لمصالحها. ولهذه القراءة كذلك حد من

[15]- كارل غوستاف يونغ، **البنية النفسية عند الإنسان**، ترجمة: نهاد خياطة، ط1، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994، ص 28

[16]- لا يزال السؤال مطروحًا بعد ثلاث سنوات من قيام "الثورة" في تونس بين فريق يرى أن حقيقة الأمر حدوث انقلاب وبين فريق يؤمن بنظرية الثورة الشعبية دفاعًا عن الحرية والكرامة وحق العاطلين عن العمل في الشغل.

الصواب، بما تقدمه من شواهد على أوصاف ونعوت لا تخلو من منطق يؤيدها ويسبغ عليها المشروعية"[17]. فما هي أهم طقوس تلك الثورة؟

أ- الإحرام:

يعرف الإحرام بأنه "الدخول في الحرم"؛ أي دخول فضاء مقدس، وللثورة في دول الربيع العربي ميادينها المقدسة، مثل ميدان التحرير في مصر وشارع الحبيب بورقيبة في تونس، وهو يعني أيضًا الدخول في الزمن المقدس؛ أي الأشهر الحرم، وهي في عرف الثورة التونسية شهر يناير، ذلك الزمن الذي ارتبط في ذاكرة التونسيين بالاحتجاج والانقلاب ضد سلطة الدولة، ففي 23 يناير 1846 تم إلغاء الرق من تونس بمقتضى مرسوم من الباي، وفي 29 يناير 1861 صدر عهد الأمان القاضي بالفصل بين السلطات، وفي 13 يناير 1875 تأسست المدرسة الصادقية التي كان ظهورها يمثل ثورة حقيقية في مجال العلم والمعرفة، وفي 20 يناير 1946 تأسس الاتحاد العام التونسي للشغل، ويعد يوم 18 يناير1947 المعروف عند التونسيين بعيد الثورة، قبل أن يلغيه نظام بن علي. ويعود 14 يناير 2012 موعد أول احتفال بذكرى الثورة، وقد انتقلت الحركة الوطنية يوم 18 إلى يناير مرحلة الكفاح المسلح ضد المستعمر الفرنسي. ولم يكن ذلك الشهر الحرام ليفقد بريقه السياسي بعد الاستقلال إذ ارتبط بتنفيذ أول إضراب عام يوم 26 يناير 1978، وبانتفاضة الخبزة[18] في سنة 1984، وانتفاضة الحوض المنجمي في يناير 2008، وأخيرًا كان زمن سقوط نظام بن علي يوم 14 يناير 2011.[19] فمثلما يحج المسلمون في الأشهر الحرم نحو البيت الحرام، فإن التونسيين تعودوا أن يكون يناير هو الشهر الحرام للثورة، ولعل ذلك ليس صدفة، وإنما هو نتيجة تراكمات تاريخية صيرت التحركات الثورية في هذا الشهر سنة دأب عليها التونسيون.

و يناير هو أول شهر في السنة، يرتبط بطقوس التحوّل من سنة إلى أخرى، وفيه توضع الميزانيات الجديدة وترفع فيه الأسعار وتجبى فيه الضرائب، ولذلك فلا يمكن أن ننكر الأسباب العقلانية للتحركات الشعبية في هذا الشهر، ولكن بفعل التراكمات التاريخية تولّد شعور لاواعٍ بأن هذا الشهر هو موسم الانتفاضة ضد السلطة وكسر شوكتها، وبدت الاحتجاجات فيه أشبه بطقوس العبور عند قبائل الأشانتي(Ashanti) الغَانيّة، فيتحول الانتقال من سنة إلى أخرى فرصة لشتم الملك، ولذلك فإن الفتن والعلل المتراكمة يقع تفريغها من خلال الإفراط في المجاهرة بالحقيقة، ليسود النظام الذي يقوم على اجتماع القبيلة. وتختم الطقوس بموكب مهيب للملك

[17]- محمود حيدر، **بواعث الثورات القلقة**، مسعى تنظيري لفهم طبائعها وأسئلتها وتحيّزاتها الإيديولوجية، ضمن كتاب: ثورات قلقة مقاربات سوسيو – استراتيجية للحراك العربي، ط1، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2012، ص ص 10- 11

[18]- قامت أحداث الخبزة بعد الترفيع في سعر الخبزة الواحدة من 80 مليمًا إلى 170 مليمًا، فقامت احتجاجات واسعة ضد الحكومة، وأحداث عنف سقط فيها كثير من القتلى والجرحى، مما دفع الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة نحو إعادة الأمور إلى نصابها وإلغاء الزيادة فعاد الهدوء إلى البلاد.

[19]- مصطفى قويعة، جانفي في الذاكرة التونسية.

http://www.attounissia.com.tn/

وحاشيته، وذلك من خلال إعادة تنصيبه ملكًا مطلق السلطة.[20] ومثلما لا يحل للمحرم نحو مكة الصيد والجماع، فإن أعمالاً ثورية مماثلة صارت تحدد سلوك حجّاج الميادين، ذلك أنه يحرم على الثائرين ارتكاب المحرّمات، مثلما يحظر على المحرم الوطء ومقدماته [21] كالقبلة والمداعبة، ولذلك وقع التشهير بأعمال التحرش التي حدثت في ميادين مصر زمن انتفاضة شعبها.

فجميع الثائرين يولّون وجوههم شطر مراكز السيادة، في لحظات خشوع ثوري تأتلف المشاعر المقدسة مع نبل المقاصد التي يجتمع من أجلها الثائرون. ولهذا، فكل الملاذ الحسية مؤجّلة ولا مجال للتفكير فيها في ذلك الموكب الخاشع، فأغلب المشاركين صائمون منقطعون عن الطعام طوال المسيرات التي يشاركون فيها، والمحرم الثوري لا يحرق متجرًا ولا يقتلع شجرًا ولا يعتدي على أحد، ومثلما يحل للمحرم في الحج قتل ما يؤذيه يحل للثائر المحرم مواجهة من يؤذيه من رجال البوليس أو الميليشيات المساعدة للسلطة.

ب- لبس الأعلام وحمل الرايات:

تفرض شعائر الحج على المسلم لباسًا أبيض يُحرم فيه دلالة على طهارته وتخلصه من الرجس الدنيوي للثوب المخيط المرتبط بالحياة الدنيوية "ويستحب أن يحرم في ثوبين نظيفين، فإن كانا أبيضين فهما أفضل."[22]، والمحرم الثوري يرتدي الرايات الوطنية ويحمل الشعارات الثورية التي يؤمن بقداستها، ولذلك فمثلما تبدو الثياب البيضاء مؤشر تطهر من الرجس الدنيوي، فإن الرايات الوطنية كثيرًا ما تكون مؤشر تطهّر من المصالح الذاتية الضيقة والانتماءات الحزبية، وهي وسيلة تحقّق وظيفة اجتماعية هي المساواة بين المُحرمين، إذ هي تلغي كل الفوارق الطبقية بين أفراد الشعب الواحد، وتوحّد بين صفوفه دفاعًا عن رايات الحق الثوري وشعارات "الحرية والكرامة الوطنية". ولذلك، فالرايات الوطنية هي البديل السيميائي لثياب الإحرام في شعائر الحج.

ج- التلبية:

التلبية شعار الحج، ولهذا "يستحب رفع الصوت بها للرّجل، حيث لا يجهد نفسه والمرأة ترفع صوتها، حيث تسمع رفيقتها ويستحب الإكثار منها عند اختلاف الأحوال"[23]. هكذا قضت شعائر التلبية في الحج، فأما

[20]- Encyclopédie Universalis, 1er édition,Paris, SPADEM/ADGP,1990,tome20, p67

[21]- ابن تيمية، أحكام مناسك الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي، ص47

[22]- المرجع نفسه، ص 30

[23]- المرجع نفسه، ص ص 40-42

التلبية الثورية فتقوم على شعارات يرفعها المتظاهرون، وتصير موحدة صوتيًا بين حناجرهم، مثلما هي موحدة بين عقائدهم الثورية، يرفعون أصواتهم بها رجالاً ونساءً في واقع لم يعد يقيم للاختلاف بين الجنسين وزنًا، وتتحول التلبية بتغيّر الأحوال؛ فالشعارات غير ثابتة وتصاعدت حدّتها بمرور الزمن، إذ انطلقت مدافعة عن الشغل والحرية وتحولت مطالبة بإسقاط النظام، وهي أشبه بالترقّي في الوعي الصوفي، فإذا صدق السالك إلى الثورة، "أصبح ظاهره كباطنه، فأخلص وأطاع واستعدّ قلبه للمكاشفات والأحوال والمقامات... وانتقل من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام"[24]، ولعل أشهر الشعارات التي رفعها المتظاهرون في دول الربيع العربي قولهم: "الشعب يريد إسقاط النظام"، وهو شعار يلخّص معاني المواجهة بين طرفي النزاع، وهما السلطة والشعب ووسائط التغيير الثوري المتمثلة في الإرادة، ولئن كانت التلبية توحيدًا للقول في اتجاه إعلاء كلمة الله، فإن التلبية الثورية اتحاد بين الثائرين من أجل تلبية المطالب الشعبية وتحقيق الكرامة الوطنية، وفي ذلك تحول أنطولوجي في تصورات الشعوب من مقدس سماوي إلى مقدس أرضي، ومن شيطان ميثولوجي إلى شيطان سلطوي يتمثل في نظام سياسي مستبد وأجهزة حكم لا تحقق شروط الحرية والكرامة والشغل لمواطنيها، وهي تؤلف منظومة من الصور الذهنية والنفسية التي تكون محلّ تواضع واتفاق بين المجموعة الثائرة، وتبدو "قوة الكلمات مرتبطة بالصور التي تثيرها، وهي مستقلة تمامًا عن معانيها الحقيقية. والكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق هي التي تمتلك قدرة أكبر على التأثير والفعل، نضرب على ذلك مثلاً الكلمات التالية: ديمقراطية، واشتراكية، ومساواة، وحرية،... إلخ، فمعانيها من الغموض، حيث إننا نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحها، ومع ذلك فإن حروفها تمتلك قوة سحرية بالفعل، كما لو أنها تحتوي على حل لكل المشكلات؛ فهي تجمع المطامح اللاواعية المتنوعة وتركبها، وتحتوي على الأمل بتحقيقها".[25]

وانطلاقًا من الشعارات، يمكن للباحث فهم المقاصد العامة لكل ثورة، فإن كانت ثورة من أجل أسلمة المجتمع فستكون شعاراتها حتمًا تكبيرًا وإغراقًا في اعتماد المعجم الديني، ولكن حين تكون شعارات الثورة "خبز وحرية وكرامة وطنية" فهي رسالة لكل السّاسة كي يستوعبوا مقاصد الثورة. ومثلما يكون جوهر الحج في مقاصده لا في نيل " ألقاب في غير موضعها" كي لا تتحول شعائر التلبية إلى مجرد شعارات جوفاء يعود بها الحاج الثوري ببلاء أكبر وشر أعظم، فيحب ألّا ينسى السائس مقاصد الحجّ الثوري، وتصير غاياته غير التي عناها الشعب وحجّ من أجلها، وفي كثير من دول" الربيع العربي" تحوّلت شريعة الثورة إلى غير مقاصدها، فصارت صراعًا على الهوية وبحثًا عن المناصب بدل تلبية المقاصد الثورية وتحقيق الأحلام الشعبية. فالصور التي قدّمتها الكلمات من خلال الشعارات المقدسة للثورة ترتبط بدوائر سياسية واقتصادية وأخلاقية: فأما الصورة الأولى، فهي الديمقراطية بديل عن الاستبداد؛ وأما الصورة الثانية، فالشغل بديل عن البطالة والتهميش؛ وأما الثالثة، فالكرامة بديل عن المهانة، ومثّلث الصور التي رسمت الثورة التونسية

[24]- حسن الشرقاوي، **معجم المصطلحات الصوفية**، ط1، بيروت، دار الساقي، 1987، ص 76
[25]- غوستاف لوبون، **سيكولوجية الجماهير**، ص 116

مقدساتها، ولهذا فالشعارات هي استجابة لسانية لحاجات نفسية تراكمت بفعل الزمن، حتى تجلت شعائرها تلبية لنداء الشغل والحرية والكرامة الوطنية.

والباحث في بنية الشعارات يجدها تنسجم إيقاعيًا مع بنى نفسية لاواعية رسخت في اللاشعور الجمعي، ذلك أن شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" وشعار "خبز حرية كرامة وطنية" يتخذ بنية إيقاعية ذات نفس شعري تتصل بالبيت الشعري الأشهر في الذاكرة التونسية:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

أما شعارات "التشغيل استحقاق، يا عصابة السراق"، أو شعار "يا نظام يا جبان، شعب تونس لا يهان"، أو شعار "تونس حرة حرة، وبن علي على برّه" أو شعار "خبز وماء، وبن علي لا"، فإنها تقوم على سجع وموسيقى القول الموزون والمقفى، وفق أسلوب تبنّاه الخطاب القرآني المقدس، ومن قبله الخطاب الشعري عند العرب، ولا غرابة في ارتباط الشعارات بعالم الشعر فهما من الجذر نفسه، وبينهما صلة قوية في فنيات القول وبنائه، والسجع الذي وهب الخطاب القرآني شيئًا من سحره قادر على إضفاء طابع القداسة على الشعارات، لأنها تعبّر عن وحي الشعب وما تيسر ذكره من آيات معاناته الجماعية ومطالبه الثورية.

د- الطواف:

تقوم المسيرات عادة على خط دائري تسير فيه، فهي تنطلق من مكان محدد يكون ذا طابع رمزي لتصل إليه أخيرًا؛ فهي مثلاً تنطلق من أمام مقر الاتحاد العام التونسي للشغل، لتعود إليه بعد أن تكون جابت أرجاء المدينة ومرّت أمام مراكز السيادة، والطواف فعل قدسي يقوم فيه المتعبد الثوري بالتلبية ورفع الشعارات، ويتم بسير متأنٍّ لا يجري فيه الثائرون، وإذا توقفت المسيرة فلا يكون ذلك إلا في أمكنة مقدسة تتجلى قداستها في كونها رموز السيادة، مثل وزارة الداخلية في تونس والمجلس التأسيسي والوزارة الأولى بالقصبة أو قصر الاتحادية في مصر، وقد تسبق الطواف خطبة يلقيها بعض الرموز من أئمة الثورة ليحمّسوا المشاركين، ويذكّروهم بالمقاصد التي اجتمعوا من أجلها، وكثيرًا ما تحتوي تلك الخطب على العقائد التي يؤمن بها الثائرون والرجس الذي يقصدون تطهيره من خلال طوافهم الثوري. ومثلما يقوم الحاج بالسعي بين الصفا والمروى، باعتباره من شعائر الله، فإن السعي الثوري يتم في العادة بين رموز الدولة كالسعي بين رمز السلطة التنفيذية (الوزارة الأولى في القصبة) والسلطة التشريعية (المجلس التشريعي بباردو). ولا يجوز أن يكون الطواف أو السعي إلا على القدمين.

هـ- الوقوف والمبيت بالأماكن المقدسة:

يقف الحاج بعرفة ثم يبيت ليلة بمنى تأدية لشعائره، وزمن الأيام الأولى للثورة وسعيًا إلى استكمال المسار الثوري كثرت الاعتصامات في القصبة، حتى صارت تنقسم إلى القصبة (1) والقصبة (2)، والاعتصام هو وقوف مقدّس للمطالبة بتغيير نظام أو الاحتجاج ضد سياسة متّبعة أو تحقيق مطالب اجتماعية، ولذلك فالمعتصمون الواقفون في تلك الميادين تتوحد عقائدهم الثورية حول مطالب مشتركة، وترتبط نهاية طقوسهم عند تحقيق مطالبهم. ومن مقتضيات الوقوف المبيت، وهو كالمبيت بمنى ليس فرض عين على الحاج، إذ يبيت بعض المعتصمين ليلهم في القصبة ويعود الباقي إلى منازلهم.

و- النسيكة (الضحية الذبائحية):

اصطلح العرب على الضحية الذبائحية اسم "النسيكة"، وفي الطقوس الثورية لا تكون النسيكة من الحيوان، وإنما بشر تراق دماؤهم من أجل قداسة اللحظة الثورية واستماتة في الدفاع عن المبادئ التي آمنت بها الجماعة، وهم شهداء الثورة، وهي ذات وجه مزدوج شرعي وغير شرعي، علني وشبه خفي، وعلى حد عبارة رينيه جيرار (René Girard)، "فإن صح أن قتل الضحية ضرب من الإجرام، لأنها مقدسة، فليس يفوتنا من جهة ثانية أن الضحية لا تكون مقدسة ما لم تقتل".[26] ولذلك مثلما يستهجن الثائرون قتل الثوّار، فإن فعل القتل المدنس يحول الضحية إلى كائن مقدس، ولعل رموز الثورة من الشهداء أو من لحقوا بهم بعد سقوط نظام بن علي في تونس من أمثال شكري بلعيد ومحمد الإبراهمي، يمكن أن يعدّل من مسارات الثورة، فيسقطَ حكومة ويأتي بأخرى، أو يسرّع نسق مسار، ويغيّر من تصوّرات سائدة إلى تصورات جديدة؛ فاللحظات المفصلية في الفعل السياسي بتونس ارتبطت دومًا بأحداث الاغتيال وسقوط الشهداء، فقد كان من نتائج استشهاد عدد من المواطنين في أحداث سيدي بوزيد والقصرين وغيرها من المدن التونسية أثر بالغ في تأجيج الثورة والتسريع في سقوط نظام بن علي، وكان لاستشهاد شكري بلعيد أثر مباشر في سقوط حكومة حمادي الجبالي وظهور حكومة أخرى، وكان من نتائج استشهاد محمد الإبراهمي إيقاف أشغال المجلس التأسيسي إلى حين وسقوط حكومة علي العريض لتحل محلها حكومة كفاءات وطنية.

ولذلك، فالنسيكة أو الضحية الذبائحية تقوم بوظيفة صرف العنف عن المجتمعات، وتقوية الروابط بين أفراده؛ فقد ولدت تلك الأحداث تحوّلاً في الوعي السائد عند التونسيين وقناعة بأن مصدر الشر الأكبر الذي يجب أن يطردوه من أرضهم هو"الإرهاب"، بعد أن كانت الآراء السياسية متباينة حول القضية بين مدرك لخطورتها ومقلل من شأنها، فتوحّد الخطاب بين الحكومة والمعارضة حول ضرورة مقاومة الإرهاب ودك حصونه في الجبال والثغور. و"بما أن التأثيرات الاجتماعية متأتية من مؤثر واحد، فلابد للأعضاء، وقد تآلفت

[26]- رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، ترجمة: سميرة ريشا، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة/ مركز دراسات الوحدة العربية، 2009، ص 17

نفوسهم، من أن يكونوا عرضة لذات الانفعالات النفسية، لدى كل حادثة اجتماعية، فنراهم متفقين على معاقبة المجرم، واستنكار القبائح، وتكريم النزاهة، والأخذ بيد المظلوم."[27] ولذلك، فقد توجت تلك الأحداث بوفاق وطني في تونس.

3- طقوس الاحتجاج:

يعرف الاحتجاج بأنه: "الإعلان عن موقف بالقوة، والمطالبة ومعارضة أمر قائم."[28] وقد ارتبطت الاحتجاجات بطقوس جماعية تقوم على ثوابت بنائية، لعل من أهمها :

أ- طقوس الإضراب:

يعد الإضراب شكلاً معاصرًا من أشكال النضال تتنوع أشكاله؛ فمن إضراب عن العمل إلى إضراب جوع بالانقطاع عن المأكل والمشرب، وقد ارتبطت الاحتجاجات في دول الربيع العربي بالإضراب، إذ صار أكثر الأشكال تعبيرًا عن الاحتجاج وبدأ استخدام كلمة "إضراب" في اللغة الإنجليزية عام 1768م، عندما عمل بحارة في لندن على شل حركة السفن في الميناء، تعبيرًا عن تأييدهم لمظاهرات انطلقت في المدينة نفسها. وكان الدستور المكسيكي أول دستور في العالم يضمن الحق القانوني في الإضراب وذلك عام 1917[29]. وأصبح الحق في الإضراب حقًا دستوريًا في فرنسا منذ دستور عام 1946،[30] ولعل وجه العلاقة بين الفعل الطقوسي والإضراب هو أن المتعبّد ينقطع عادة عن العمل الدنيوي حين يؤدي طقوسه كالصلاة والحج، والانقطاع عن الطعام يعتبر بدوره جوهر الصيام الذي لا يقتصر على الدين الإسلامي، وإنما يحضر في طقوس أديان أخرى، ولذلك فإضراب الجوع فعل احتجاجي يقصد منه تطهير الجسد من الشهوات والحكم على النفس بموت بطيء، لتصير مقاصد المضرب ومطالبه أقدس من حياته؛ فإضراب الجوع هو إيحاء بأن الوجود مرتبط بتحقيق المضرب غاياته، وأن العدم كامن في عدم الاستجابة لمطالبه، ولهذا فقداسة هذه الطقوس تكمن في كونها طقوس عبور بين الوجود والعدم، وبوابة انتقال بين عالم الموت والحياة.

ب- طقوس الرجم:

نجد في فضاء مكة عنصرين متصلين بالحجارة: الأول يتمثل في الحجر الأسود، وهو حجر مقدس يعتقد المسلمون بقداسته، والثانية هي أحجار الرجم التي يتخذها الحاج لرجم الشيطان وقد عرف ابن منظور

[27]- يوسف شلحد، **نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني**، ط1، **لبنان**، دار الفارابي، 2003، ص ص 36-37

[28]- Le Petit Larousse,1er édition,Paris,édition Larosse,1995,P831

[29]- http://ar.wikipedia.org.

[30]- http://www.larousse.fr/encyclopedie.

الـرَّجْمُ بالقتـل، وقـد ورد فـي القـرآن الـرَّجْمُ القتـل فـي غيـر موضـع مـن كتـاب الله عـز وجـل، وإنمـا قيـل للقتل رَجْمٌ لأنهم كانوا إذا قتلوا رجلاً رَمَوْهُ بالحجارة حتى يقتلوه، ثم قيل لكل قتل رَجْمٌ، ومنـه رجم الثَّيِّبَيْنِ إذا زَنَيا، وأَصله الرمي بالحجارة ... والرجم الهجران، والرجم الظن، والرجم السب والشتم."[31]

وتلك ذاتها هي الوسيلة الأنجع في الاحتجاج ضد السلطة القائمة، لأن الحجارة رمز للحدود والحواجز، والرجم رمز للقتل واللعن والسب والشتم، وقد تحدث القرآن عن حجارة من سجيل ترميها طير أبابيل، ويُعَدُّ الحجر الأسود أبرز رمز وأشهره يقصده الحاج في مناسكه".[32] وفي الذاكرة العربية المعاصرة، ظلت الحجارة بدورها مقدسة، إذ ارتبطت بانتفاضة الشعب الفلسطيني، وسميت بانتفاضة أطفال الحجارة التي انطلقت خلال شهر نوفمبر 1987، حتى صارت بطولاتهم أغنية مقدسة على ألسنة الشعراء تلخصها قصيدة نزار قباني التي تحمل عنوان "أطفال الحجارة"[33]، وصاروا رمزًا معاصرًا لقداسة الحجر في مواجهة الدبابة، أيقظ البعض ليدافع عن القضية وأحرج الضمير العالمي المفتون بأغنية الحرية وحقوق الإنسان على وقع الحجارة المقدسة في يد الأطفال الأبرياء، وهم يواجهون أعتى الأسلحة المتطورة وأحدث الترسانات العسكرية الحديثة.

بات الحجر صرخة العَود إلى البدء ورحم الإنسانية في عصورها المظلمة يحفر في الذاكرة بأدواته الحجرية قداسة الاحتجاج وقوة الإرادة الصلبة كالصخر دفاعًا عن الأرض والعرض؛ والحجر في اليد كالتمائم السحرية يلقي الرعب في صفوف العدو ويصيب ضميره النائم طمعًا في إيقاظه، والحجر في الثورات العربية ليس مجرد أداة مادية يلقيها المحتجون على مراكز السيادة ومعاقل الشياطين السياسيين، وإنما رجم بالكلمات والشعارات تعرية للسلطة القائمة وكشفًا عن حقائقها، ففي زمن السماء المفتوحة وثورة المعلومات كان القصف الإعلامي شديدًا على الأنظمة.

لقد مضى زمن القناة الرسمية الواحدة التي لا تبث من مشاهد الوطن سوى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، والمواطنون فيها خالدون يحْمَدُونَ قائدهم في كل وقت وحين، وجاء عصر جديد تعدّدت مصادر الخبر فيه ومواطن انفلات الحقيقة عن الضبط السلطوي، وولّى زمن الصحيفة الواحدة التي تعلوها صورة الزعيم الأوحد وتصادر لمجرد تلميح ضد السلطة، صارت الصورة هي الحجر الأكبر الذي تُرجَم به السلطة،

---

[31]- ابن منظور، **لسان العرب**، ط1، بيروت، دار صادر، 1992، ج12، ص ص 226-227

[32]- Malek Chelhed,Dictionnaire des symboles musulmans,Rites mystiques et civilisation, 1er édition,Paris,édition Albin Michel,1995, p336

[33]- يقول نزار قباني:

بهروا الدنيا وما في يدهم إلا الحجارة
وأضاؤوا كالقناديلِ، وجاؤوا كالبشاره
قاوموا.. وانفجروا.. واستشهدوا..
وبقينا دبباً قطبيةً
صُفِّحت أجسادُها ضدَّ الحراره..

مثلما كانت بالأمس أداة قوة في يد الحاكمين، وقنوات تصريف المعلومات متعددة، سواء ما خرج منها عن حدود الوطن أو ما راج من صفحات التواصل الاجتماعي المستعصية على الرقابة الرسمية، ورغم محاولة بعض الأنظمة قطع الاتصالات خوفًا من بركان الأنترنت الثائر وحممه الحارقة للقصر الرئاسي، فإن المرجل الشعبي ظل يغلي، وتواصل الرجم بالصورة والكلمة عبر وسائل الاتصال الحديثة وقنوات لا همّ لها سوى أن تنفخ في فتيل الانتفاضات الشعبية، حتّى تصير نارا تحرق كل رموز السلطة القديمة وتحكم عليهم قسرًا بالاستسلام أو الهروب أو الإعدام؛ فقد كانت أشبه بطير أبابيل ترمي الأنظمة بحجارة من سجيل وتسقي الشعوب كأسًا كان مزاجها تحريرًا. أما النخب من أصحاب المشاريع الإيديولوجية والثورية، فقد أصيبوا بصدمة على حدّ عبارة علي حرب وأثبتوا " أنهم يأتون بعد فوات الأوان، لكي يعترفوا بأن الأحداث تسبقهم أو تصدمهم أو تفضح عجزهم وهشاشتهم وجهلهم بالنفس والآخر والمجتمع والعالم".[34]

فقد حافظ المثقف العربي على وهمه بأنه قائد الركب الثوري، وأن العامة تحتاجه إمامًا يعلّمها شعائر الثورة وطقوس الاحتجاج، فبدا العكس صحيحًا حين علمته الثورة فعلاً في الوقت الذي لم يمتلك غير مفاتيحها قولاً، قدمت له دروسًا تطبيقية في الشعائر الاحتجاجية جعلته يبحث لها عن فتاوى في نظرياته الثورية، ويبحث لها عن مسميات من مخزونه اللساني، لقد كانت العولمة تيّارًا جارفًا جعل الدخول في اقتصاد السوق بوابة لا تدخل معها السلع الغربيّة فحسب، وإنما بوابة لمفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان وكرامة الإنسان، ولذلك فقد ترسّبت تلك القيم في اللاوعي العربي، وتبلورت في ذهن الثائر والمحتجّ طقوسًا لا تطلب غير قداسة الإنسان شغلاً وكرامة وحرية، وجعل الشعب الثائر تلك الشعارات رجومًا للشياطين من المستبدين والفاسدين، لتكتمل طقوس الثورة جمعًا بين الحجر في مفهومه المادي والحجر في مفهومه الرمزي.

ج- طقوس النار:

النار حاضرة باستمرار في الاحتجاجات، حتى صارت لسانيًا تعبر في الاستعمال اليومي عن الاحتجاج حقيقة ومجازًا[35]، فعلى قدر حديث الناس عن اشتعال الجهات مجازًا يكون فعل الإحراق حقيقة، ولعل أبرز الأماكن التي استهدفها الحرق هي مقرات الأحزاب ومراكز السيادة، باعتبار طقوس الثورة تقوم على تطهير الواقع من دنس تلك المؤسسات ورجسها، ويطال فعل الإحراق رموز الدولة الفاسدين الذين قامت الثورة ضدهم، ليكون الإحراق للصورة تعبيرًا عن إحراق الأصل وإعدامه من ساحة الفعل السياسي، والناظر في الدلالة الرمزية للنار يرى طابعها المقدس عند الشعوب بدءًا باليونانيين القدامى وصولاً إلى المجوس وعرب ما قبل الإسلام وبعده، وانطلاقة الثورة التونسية كانت بشرارة أحرق بها محمد البوعزيزي نفسه، وبعدها سرت

[34]- علي حرب، **ثورات القوة الناعمة في العالم العربي من المنظومة إلى الشبكة**، ط2، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012، ص 49

[35]- يتحدث الناس مجازًا في تونس عن اشتعال الجهات كلما بدأت حركات احتجاج.

الثورة في تونس والوطن العربي سريان النار في الهشيم، وللنار في الذاكرة الإنسانية عامة قداسة، إذ عبد الإنسان النار وجعلها آلهة، ومن دلالات النار في معجم الرموز الإسلامية:" أنها نموذج أولي للنار المقدسة وأقرب صورة إلى الذهن هي نار جهنم. والنار في التصور الإسلامي هي وسيلة تطهير، ارتباطًا بالتصورات الهندية والفارسية، وهي في الإسلام عقاب أعد للكافرين والمغضوب عليهم. كما ترتبط النار في الوعي الإسلامي بمفهوم النهاية؛ فقد تحدّث البخاري عن علامات الساعة على لسان أبي هريرة حين اعتبر أن العلامات الأولى للساعة هي ظهور نار تشمل أهل الشرق والغرب.[36] وللنّار دلالات مقدّسة من خلال منحها الإنسان طاقة سحرية ترتبط بالتغيير الثوريّ السريع، وهو ما يؤكده باشلار (Gaston Bachelard) بقوله: "هكذا هي النار ظاهرة ذات امتياز يمكن أن تفسر كل شيء. وإذا كان كل ما يتغير بطيئًا تفسره الحياة، فإن كل ما يتغير سريعا تفسره النار.

فالنار هي الحي الأعلى Ultra-Vivant، وهي داخلية وخارجية. تحيا في قلوبنا وتحيا في السماء، تصّاعد من أعماق الجوهر وتتبدّى لنا حبًّا، ثم تعود فتهبط إلى قلب المادة وتختفي كامنة، منطوية كالحقد والانتقام، وهي الوحيدة من بين جميع الظاهرات التي يمكنها أن تقبل كلتا القيمتين المتضادتين: الخير والشر. تتألق في الفردوس وتستعر في الجحيم، عذوبة وعذابًا. مختبر بداية ورؤيا نهاية."[37]، فللنار سحر المقدس، فمثلما تهب الفاعل الثوري طاقة سحرية وقوة خارقة للفعل، فإنها تلقي في قلوب الذين حكموا الرعب، فهي مصدر رغبة ورهبة وينبوع قوة وثورة. ولئن احترقت سيارات الشرطة والمباني الحكومية ومقرات الأحزاب التي يقف أمامها المحتجّون، فلأنها تمثل رجسًا من عمل شياطين الإنس، ولذلك فإن طقوس إحراقها تمثل تطهيرًا للوطن من دنسها، ولقد كانت النار قبل قيام الثورة في تونس لا تفرق بين ورق وحجر، فتلقى الزجاجات الحارقة على القباضات المالية رمز العنف الجبائي وعلى مقرات البوليس رمز العنف السلطوي، ومقرات الحزب الحاكم رمز العنف السياسي، ولكن بعد الثورة كان المتظاهرون، إذا احتجّوا وأحرقوا عمدوا إلى إخراج الوثائق ومحتويات المراكز أو مقرات الحزب الحاكم فأحرقوها وتركوا البناء قائمًا، ذلك أن الرجس لم يعد مرتبطًا بالأصل، وهو البناء وإنما صار في المحتوى، وهو تمييز بين الثابت المقدس والمتحول المدنس. أما إحراق الإطارات المطاطية، وهي ظاهرة متواترة يغلق بها المحتجون الطرقات ويعطلون به حركة المرور، فرمز لإيقاف العجلة بل حرقها، فالعجلة رمز للحركة، والاحتجاج بحرقها رمزً للوقوف ضد السلطة ورجم لها، والدخان المتصاعد منها رمز للغضب الشعبي وثورة بركان المحتجين.

---

[36]- Malek Chelhed,Dictionnaire des symboles musulmans,Rites mystiques et civilisation,1er édition,Paris,édition Albin Michel,1995,pp 167-168

[37]- غاستون باشلار،**النار في التحليل النفسي**، (ترجمة نهاد خياطة)، ط1، بيروت، دار الأندلس، 1984، ص11

4– خاتمة:

طقوس العبور الثوري:

لقد انقضت طقوس الثورة أو انتفاضة الشعوب العربية كسائر الطقوس في حياة الأفراد والشعوب أيامًا معدودات، فحققت تحوّلاً في وضعيتها من مرحلة الطفولة السياسية إلى مرحلة الرشد الديمقراطي، وكانت الدساتير الجديدة عقد الزواج المبرم بين السلطة والشعب، ولكن طقوس موت السلطة الاستبدادية القديمة في الذاكرة العربية، تظل دومًا مرتبطة بالبكاء على الأطلال وتأبين الموتى، فقد وقر في ذاكرتنا الشعرية ولاوعينا النفسي أن يحن الشاعر إلى الأطلال وأن يبكيها، والسلطة الأبوية عريقة في ثقافة شعوبنا، ولذلك فقد يكون من نتائج موت الأب ولادة ابن يحاكي والده في سلوكه، وقد اتهمت بعض الأحزاب التي صعدت إلى الحكم بعد ثورات الربيع العربي بأنها تحاكي السلطة الأبوية لجلادها، مما دفع شعوبها إلى الخروج ضدها وإقصائها عن المشهد السياسي، ولكنها في الوقت ذاته كانت تبحث عن سلطة أبوية جديدة تبعد عنها الشعور الراسخ بالخوف وغياب الأمن، ذلك الشعور الذي استبد بالشعوب العربية بعد سقوط أنظمتها، والسلطة الأبوية قابلة لتحويل الإخوة المتنافسين إلى قابيل وهابيل يقتل الواحد منهما الآخر.

فلئن هدّأت طقوس العبور من وطأة التحول المفاجئ الذي شهدته الشعوب العربية، فإنه يظل مجرد طقس ظرفي، يكون الإنسان العربي بعده في مواجهة مصيره مسؤولاً عن إدارة السلطة التي انتزعها بالقوة، فعقد الثورة يخرج المواطن العربي من طور اللامبالاة التي كان يبررها الاستبداد السلطوي إلى طور الفعل السياسي والثقافي. والديمقراطية وقودها إرادة الشعب ومشاركته الفاعلة في مراقبة السائس، والحرية جهد متواصل لا يقف عند عتبات الطقوس، وبعدها يعود الثائرون في خوضهم يلعبون، فالحرية التزام يفرض على الإنسان أن يحوله إلى فعل، لا مجرد شعار يرفع في المحافل وتطوى راياته بعد انتهاء الطقوس. والشغل مطلب أساسي يجب ألّا يتخذه الساسة مطية لكسب أصوات الناخبين، ثم يولوا وجوههم بعد الانتخابات شطر القصور غير عابئين بمعاناة العاطلين ومطالب المحتاجين.

انتهى الحفل العربي في كثير من الدول، وهاهي الشعوب تنظر في فواتيرها الاقتصادية والسياسية، لتحاسب نفسها إن كانت أسرفت في طقوسها وبذّرت في سبيل شعائرها، وراحت بعض الحكومات تلزم شعبها بدفع فواتير الثورة وطقوس الاحتجاج، فهل تظل كل الأثمان بخسة وكل التضحيات هينة في طقوس الثورة العربية، مادامت الشعوب قد نالت انتقالاً آمنًا نحو مرحلة جديدة من تاريخها ضمنت بها التخلص من عقدة السلطة الأبوية، وقطعت أشواطًا نحو مستقبل تبحر فيه النفوس مطمئنة نحو عالم الحرية والديمقراطية؟

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com